غزل العُميان في الشّعر العربيّ –عبد الله البردوني نموذجًا–

The poetry of blind poets in Arabic literature – Abdullah Al-Baradouni as a model

ط. د حسناء مسدور♥

أ. د زاوي لعموري♥

المُعرّف الرّقميّ للمقال: DOI 10.33705/0114-027-002-008

تاريخ الاستلام: 03-02-2025- تاريخ القبـول: 28-03-2025- تاريخ النّشر: 15-06-2025

ملخّص: الغزل غرض شعري قديم، يقوم على النّظر ويعتمد على إبصار الجمال، والافتتان به، فيتخذ من العين البصيرة وسيلة تواصل، ولغة حوار فكثيرًا ما أبدع العشّاق المبصرون في وصف العيون الحوراء، والدّعجاء، وما تثيره من صبابة وشوق، وما تبعثه من سحر وفتنة، فما حظّ العميان المكافيف من هذا الغزل؟ وما قيمة ما نظموه من شعر غزلي؟ وهل يمكن للعمى أن يثني الشّاعر الضّرير عن النّسيب؟ ويحجمه عن التشبيب؟ وما قيمة ما قاله العميان الغَزِلُون في شعرنا العربي القديم والحديث؟

الأهداف: تحاول هذه الورقة البحثيّة تفسير ظاهرة الغزل عند الشّعراء العميان عمومًا، وعند الشّاعر اليمنيّ عبد الله البردوني، من خلال الكشف عن

♥كليّة اللّغة العربيّة واللّغات الشّرقيّة جامعة الجزائر 2، الجزائر، البريد الإلكتروني: hassna.insp@gmail.com (المؤلّف المرسل).

♥كليّة اللّغة العربيّة واللّغات الشّرقيّة جامعة الجزائر 2، الجزائر، البريد الإلكتروني: amourizaoui@yahoo.fr مخبر الخطاب الصّوفي كليّة اللّغة العربيّة واللّغات الشّرقيّة جامعة الجزائر2.

دوافع الغزل عند هذه الفئة من الشّعراء، وإبراز صورة المرأة عاشقة ومعشوقة في شعر البردوني، من خلال محاورة نصوص غزليّة مختارة.

الكلمات المفتاحيّة: غزل؛ العميان؛ البردوني؛ السّخريّة؛ اليمن.

Abstract: Ghazal (love poetry) is an ancient poetic theme based on sight, relying on the perception of beauty and fascination with it. It uses the insightful eye as a means of communication and a language of dialogue. Many sighted lovers have excelled in describing dark, enchanting eyes and the passion and longing they evoke, along with the magic and charm they inspire. But what about blind poets? What is the value of their love poetry? Can blindness prevent a visually impaired poet from composing ghazal and expressing romantic emotions? What significance does the ghazal of blind poets hold in both classical and modern Arabic poetry?

This research paper attempts to explain the phenomenon of ghazal among blind poets in general, with a specific focus on the Yemeni poet Abdullah Al-Baradouni. It seeks to uncover the motives behind love poetry in this group of poets and highlight the image of women as lovers and beloveds in Al-Baradouni's poetry by analyzing selected ghazal verses.

Keywords: Ghazal; blind poets; Al-Baradouni: satire; Yemen.

مقدّمة: الغزل باب من أبواب الشّعر، وفاتحة القصيد، شغل الشّعراء في القديم والحديث، وسحر الذّائقة الأدبيّة ردحًا من الزّمن، فحفظته وتغنّت به فالشّعر موصول بالنّسيب والتّشبيب، فهما من أنواع الغزل العفيف:" **لأنّ التشبيب قريب من النّفوس لائط بالقلوب، لما (قد) جعل الله في تركيب العباد**

من محبّة الغزل، وإلف النّساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون مختلفا منه بسبب، وضارب فيه بسهم، حلال أو حرام.."[1].

تحوّل الغزل من غرض شعري يتصل بأغراض الشّعر الأخرى، إلى مقدّمة أصيلة من مقدّمات القصيدة العربيّة التقليديّة، ثم أصبح موضوعا مستقلا بذاته تُفرد له القصائد الطِوال، وصار ملاذا للشعراء حين تغلق دونهم أبواب الشّعر " **إنّ ذا الرّمة سئل كيف تعمل إذا انقفل دونك الشّعر؟ فقال: كيف ينقفل الشّعر دوني وعندي مفاتيحه، قيل له وعنه سالنّاك ما هو؟ فقال الخلوة بذكر الأحباب. لأنّه عاشق ولَعمري إنّه إذا انفتح للشّاعر نسيب القصيدة، فقد ولج الباب، ووضع رجله في الرّكاب.."[2].**

ظلّ الغزل عبر مسار الشّعر العربي فنّ المبصرين، فالغزليون من الشّعراء يجيلون أبصارهم، ويقلبونها في الأرجاء الفسيحة، يسرحون بها في عوالم الجمال الأنثوي المفعم بالغوايّة والفتن، يبسطون حبل الغزل ما اتّسع:

بَسَطتْ رابعةُ الحبلَ لنا فوصلْنا الحبلَ مِنها ما اتّسعْ[3]

يُمعن الشّاعر الغَزِل في وصف محاسن محبوبته، ويمتّع ناظريه من جمالها ويقف على تفاصيل هذا الحسن، ولا يهمل دقائقه، والشّعراء في هذا الغزل مذاهب، وفي حبّهم طوائف عديدة:" **فشعراء صرّحوا بالحديث فعرضوا لنا صورًا واضحة عن أحبتهم...وشعراء حدثونا عن ذلك حديثا يختلط فيه الضّباب والنّور، ويمتزج فيه الحياء والصّراحة...وشعراء كانوا على قدر أوفى من التجمّل فاكتفوا أن أشعرونا بأنّهم يحبّون.."[4]**

لم يعد الغزل فنّ المبصرين لوحدهم، ولم تعد العين البصيرة حاسّة الغزل الوحيدة، فالغزل باب يطرقه الأعمى الضّرير، ويدلف إلى عوالمه، ويبدع فيه وقد يتفوق فيه على ذوي الأبصار، ويستعيض من خلاله حاسة البصر، ويحمل اسمها، فالغزل يحوّل اسم الشّاعر الجاهلي المعروف بالأعشى، إلى اسم جديد

"أبا بصير"، وينفرد بصفة الفرجة والاستعراض، فيطلق عليه اسم جديد" صناجة العرب"*، واستحقّ لقب "أستاذ الشّعراء":" **أعشى بني قيس بن ثعلبة أستاذ الشّعراء في الجاهليّة**"[5].

والعمى لم يثنِ شاعر الإغريق الأوّل "هوميروس" عن النّبوغ والفرادة، وقد قدّم للأمة اليونانيّة تاريخها الغابر، وعرضه في قالب ملحمي بديع، امتزجت فيه الحقائق بالأساطير والواقع بالتخييل: "**كان هوميروس ضريرًا، ومع ذلك منح البصر للآلهة والأبطال والحِسان، واصطنع عالَما أسطوريا مبصرًا تتنازع فيه الآلهة، ويتقاتل الفرسان، وتثلم العذارى قلوب العاشقين ويتساقط الأبطال كأنّهم جافة في ربوع اليونان إلى درجة أن أصبح عالم ملحميته نموذجا لسائر المجتمعات المبصرة في التاريخ**"[6].

لقد طرق الشّعراء المكافيف أبواب الغزل، وافتنّوا فيه، ولم يختلف غزلهم عن المبصرين، بل تجاوزوه في مواقف كثيرة، فما الّذي دفعهم في هذا البحر اللّجيّ الذي لم يقوَ فحول المبصرين على مدّه وجزره:

أُقاتِل كلّ جبّارٍ عنيدٍ * ويقتلني الفراق بلا نزالِ**[7]

2. دوافع الغزل في شعرِ العُميان: لم تكن دوافع الغزل عند الشّعراء الغَزِلين واحدة، ولم يكن الغزل عند بعضهم حقيقيا، بل كان مجرّد تقليدٍ فنيّ، واستعراض بلاغي زائف، الهدف منه إبراز الفحولة الشّعريّة، وتبيان الاقتدار الشّعريّ وإثبات القدرة على تصريف الشّعر حسب الحاجة، يُطلق عليه طه حسين الغزل العادي، ذلك الّذي أسّسه القدماء من شعراء الجاهليّة والإسلام: "**أُريد به الغزل الّذي لا يقصد به لذاته كما يقول أصحاب المنطق، وإنّما يتخذ وسيلة إلى غيره من فنون الشّعر، إلى المدح والهجاء والوصف ونحوها، أُريد به هذا الغزل الّذي كان الجاهليون يبتدئون به قصائدهم، والذي ظلّ الإسلاميون يبتدئون به قصائدهم إلى اليوم..**"[8].

يندرج غزل العُميان في هذا الباب، فقصص الحبّ عندهم في الغالب غير مكتملة، تلقي بكاهلها على طرف واحد فقط، يطمع في وصال مستحيل وتحقيق أمل لا يُرجى حصوله، حبٌّ يائس، لا منطق يحكمه، يقول كبير العميان الجاهليين:

علّقتها عَرَضًا وعلّقتْ رَجُـــــلاً * غيـــري وعلُّـــق غيرَها الرّجُلُ**
وعُلِّقتهُ فتاةٌ ما كان يحاولهـــا * منِ أهلِها مَيْتٌ يَهذي بها وَهِلُ**
وعُلِّقَتْني أُخَيْرى ما تُلائِمُنـــــي * فاجتمعَ الحُـبُّ حُبًّا كُلُّـــهُ تَبِلُ[9]**

تختلف دوافع الحبّ والغزل عند الشّعراء العميان، لكنّها ترتبط في الأساس بنفسيّة الأعمى، وحاله، ووعيه بعاهته، وعجزه عن مبادلة الحبّ ومشاركته وأنّى يستقيم له حبل الوّد وهو عليل؟ وكيف يروي ظمأه وهو مقعد مهين، فالصّدود والتبرّم، وربّما السّخريّة من حبّه الكسيح، وعدم الوثوق بالحبيب، والتوجس منه كلّها أحاسيس مؤلمة وموجعة، ولواعج مكتومة لا يقوى الشّاعر الغزل على مقاومتها، والبوح بها أحيانًا، فيُفضي للمحبوبة بمخاوفه قائلًا:

تأمّلتني أختُ المجـــدِ قائـلةً * بمن أراكَ أسيرَ الوجـــــــدِ والطّربِ؟**
فقُلتُ قلبي مُسبى وإنّكِ لـــــوْ * كتمتِ سرّي لم أكتمكِ كيف سُـبـــيِ**
فأعرضتْ ثم قالت قد أسأتَ بنا * ظنًّـــا أيجمُلُ هذا من ذوي الأدبِ؟[10]**

يرتاب العاشق الأعمى في نوايا محبوبته، ويخاف من البوح بأسرار قلبه العاشق لها، وهذا الموقف يتكرّر عند أغلب المكافيف الغزلين، الذين يحجمون في الغالب عن الإفصاح عن مشاعرهم، فالغزل عندهم مجرد توهم وتخييل وارتياده تقليد فني دأب عليه الشّعراء المبصرون والعميان منذ أن قُصّد القصيد على أيّام الجاهليّة الأولى.

يُخالف بشّار بن برد مذهب الشّعراء العميان في الغزل؛ فالغزل عنده طمع في وصال، ومطيّة للقاء، واستدراج للمحبوبة، وإيقاع بها، فبشّار غزِلٌ لهِجٌ، لا

يدع لذّة يوم إلى غد، لا يهمّه وشايّة الرّقباء والكاشحين، ولا يأبه لأقاويلهم، وهو لا يفكّر في صدود أو تراجع، ولا تحجمه عاهته عن طلب المستحيل:

مَنْ راقَبَ النّاسَ لمْ يظفرْ بحاجتهِ * وفازَ بالطيِّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ**[11].

يقسّم طه حسين شعراء الغزل إلى فئتين؛ فئة العذريين المتأثرين بعفّة الإسلام، المعزولين في بوادي الحجاز عن تأثيرات الحضارة الجديدة، وهم بنظره غير محققين، يطلبون الحبّ في السّماء لا في الأرض، وفئة ثانيّة على نقيضها تماما، أطلق عليم اسم "المحققين" وهم شباب واقعيون مترفون، متفرغون للغزل وحده، لا يتورعون عن مراودة جميلات مكة والمدينة، والتعرض لهنّ في مواسم الحج والطواف، وأشهرهم "عمر بن أبي ربيعة" المخزومي القرشي، والّذي عُرف بغزله اللّاهي، وتهتكه، وهو مؤسّس هذا النّوع الماديّ من الغزل في الأدب العربي، وهو برأي طه حسين لم يكن عفيفا عفّة العذريين، ولم يكن ماجنا مجون شعراء الغزل العباسيين: "**لم يكن عذريًّا، ولم يكن يريد أن يذهب مذهب العذريين، وإنّما كان عمليا مُحقّقًا يلتمس الحبّ في الأرض لا في السّماء.. فلم يكن يُسرف في العبث، وإنّما كان يقتصد اقتصادًا ويتوسّط في حبّه توسطًا، فيعفُّ كثيرًا، ويعبث قليلًا.**"[12].

يعتبر بشّار بن برد تتمة لمسار الغزل الأموي الذي أسّسه عمر بن أبي ربيعة، والأحوص والعرجيّ وغيرهم، لكنّه كان أكثر تهتكا ومجونًا، وقد بلغ به الطيش والجسارة مبلغا كبيرًا، جعله لا يُلقي لأخلاق العامّة بالًا، ولا يتورع عن المجاهرة بفحشه وعربدته، وقد اتضح من غزله أنّه يهدف به الانتقام من مجتمع المبصرين، والثّأر لقهر عاهته، وسخريّة النّاس منه، فالقصص الغرامي في شعره، لم يكن حقيقيا، بل مصطنعًا وملفّقا في غالبه، غرضه الرّد بالاحتجاج على منظومة أخلاقيّة ودينيّة واجتماعيّة، يراها فاشلة، لا يكفّ على التعرّض لها، والتعريض بها، وتحدّيها.

فإذا انتقلنا إلى غرض الغزل وجدنا شاعرًا غزلا، كلفا بالنّساء، بارعًا في التشبيب بهنّ، واستدراجهنّ، وغوايتهنّ، ويتحوّل الشّاعر اللئيم صاحب الهجاء المقذع، إلى عاشق حلو المعاشرة، عذب الحديث، يتقن المراوغة والملاعبة والمراودة، لطيف ظريف متأدّب، وقد برع في صناعته التي لم يخلق لها فالشّعر وحده من يحوّل الأعمى الضّرير القبيح، إلى أمير وسيم يأسر النّساء ويوقعهنّ في شراكه، ويتحوّل الضّرير إلى مبصر، يمتّع ناظريه، وبقلبه يرى لا بعينيه والجمال عنده مخالف لما يراه النّاس ويعتقدونه، يقول في حبّ جاريّة اسمها عبدة:

يزهّدني في حُبِّ عبدةَ معْشـــــــرٌ ** قلُبُـهم فيها مخالِفَـــــةٌ قلـــــبي
فقُلْتُ: دعُوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلبِ لا بالعينِ يُبصِرُ ذو اللّــبِ**
وما تبصرُ العينانِ في موضـعِ الهوىولا سمِع الأذنانِ إلّا من القلبِ وما**
الحُسْنُ إلّا كلّ حُسْنٍ دعا الصّبـــــاوألّف بين العشيقِ والعاشقِ الصّبِّ[13].**

يستغرب الشّاعر الضّرير من تعجّب الفتاة الغرّة الصّغيرة منه، وكيف يستطيع وصفها من غير أن يراها، وأنّى له وهو الأكمه المكفوف؟ فمن أين تتثال عليه الصّوّر والألوان، وكيف تسعفه قريحته، ويطيعه البيان؟ فمن جميل وصفه وغزله هذه الأبيات التي قالها في فتاة لم تبلغ رشدها بعد، حاولت أن تتحدّى شاعريّة بشّار واستهانت بطاقته على وصف مكامن الجمال، وأسراره فكادت تقع في أسره وقد وقعت فعلا بين براثن غوايته، ولولا حمايّة أمّها لها لكان الّذي كان:

عَجِبتْ فطمةُ من نعتي لها * أيُجيدُ النّعْتَ مكفــوفُ البصَرْ؟**
بنتُ عَشْرٍ وثلاثٍ قُسِّمــتْ * بينَ غُصْـنٍ وكَثيبٍ وقمَـــــرْ**
دُرّةٌ بحريّة مكنونـــــــــةٌ * مَازَها التّاجِرُ مِنْ بينِ الـــدُّررْ**

يضيق الضّرير بقلبه الذي يهفو للحِسان، ويرنو لوصالهنّ رغم علمه باستحالة تحقّق ذلك، وقد لاقى العاشق الطّامع في اللّقاء أصناف المذلة والهوان، وسمع أصناف الشّتم وعبارات الصّد والرّفض والاحتقار، فأنّى له وهو الضّرير الذي تشوّه وجهه، وساءت خِلقته؟ فليس له إلى ودهنّ نصيب، وقد سجّل حواره مع هذا القلب الولهان، وعاتبه عتابًا مَشوبًا بالاستعطاف فقال:

عَدِمتُكَ عاجِلًا يا قَلْبُ قلبَا * أَتجعَلُ من هويتَ عليكَ ربَّـا؟**

بِأيِّ مَشورةٍ وبـــــأيِّ رأْيٍ * تُملّكُها ولا تسقيـــــكَ عذْبَا؟**

أَمِنْ ريحانَةٍ حَسُنتْ وطابَتْ * تَبيتُ مُروّعًا وتَظلُّ صَبّـــــا؟**[14]

يتخلّص بشّار من لؤمه وفحشه، ومن فضاضته وشدّته، ويلبس لباس النّسيب الرّقيق، وثوب العاشق الصّبّ، وقد أضناه الهجر، وعذّبه النّوى، وأبكاه الصّدود، وأقعده العجز وقلّة الحيلة، وهوانه على من يحبّ.

تتعدّد أهداف الغزل عند الشّعراء العميان إلى تقدير الذّات، وردّ الاعتبار وفرض المكانة، وتحدي المبصرين الذين ينعمون بالنّظر إلى الجمال الأنثوي الأخّاذ، ويسرحون في عوالمه، وهو عند بشّار بن برد انتقام من مجتمع المبصرين الّذين لم يُقدّروا العميان حقّ قدرهم، وعمل على تقويض قيمهم الهشّة، والتعريض بها.

3.غزل سياسيّ أم مديح؟: يقترن الغزل في الشّعر العربي بأغراض شعريّة أخرى، مثل الهجاء والمدح، والعتاب والاعتذار والشّكوى، وحتّى الحكمة والزّهد فما يدخل على غرض شعري حتى يلينه، ويزينه، ويذكيه بحرارة العاطفة ولوعة الوجد والصّبابة، فقد ابتدع الشّاعر الأموي "عبيد الله بن قيس الرّقيّات" غرضا شعريا جديدًا، أطلق عليه الدّارسون الغزل السّياسي، أو الغزل الهجائي الكيدي يتغزّل فيه الشّاعر بزوجة الخليفة الأموي، دون أن يستبيح عِرضا، أو يخدش حياءً، ويرميه بالغفلة والبلادة، والعجز، ويتم هذا الحوار العشقي كلّه في المنام

ولا تتوقف مشاهد الغزل حتّى يستفيق الشّاعر الغزل على صوت المؤذن، يعلن طلوع الفجر، لقد انتقل شعره إلى سلاح في وجه الأعداء وتحوّل غزله ونسيبه إلى نوع من النّضال السّياسيّ الذي يمدح فيه نساء الزّبيريين ويعرِّض بنساء خصومهم من الأمويين يقول الرّقيات متغزّلًا هاجيا:

ألا هزئِت بنا قر شيـ * ـةٌ يهتزُّ موكبُها**

لها بعلٌ غيورٌ قا * عِدٌ بالبابِ يَرقبُها**

يراني هكذا أمشي * فيوعدها ويَضرِبها**

لم يكن هذا البعل القاعد عند الباب سوى خليفة المسلمين عبد الملك بن مروان، ولم تكن هذه المرأة الضّحوك اللّعوب سوى زوجته " أم البنين"، والشّاعر ليس ملوما ولا مذنبا ما دام الأمر تمّ في المنام، ومن ذا يلوم نائما أسرف في حلمه، وتجاوز به حدود المعقول؟

فكانَتْ ليلةً في النّو* مِ نَسْمرُها ونلعبُها**

فأيقظنا مُنادٍ فـــي * صلاة الصّبح يَرقُبُها**

فكانَ الطّيفُ مِن جنيّ * ـةٍ لمْ يُدرَ مَذهبــُها**

يؤرّقنا إذا نمْـــــــنا*ويَبعد عنّـــا مَسربُها[15].**

يرتبط الغزل بالسّياسة على نحو ما رأينا عند الرّقيات، وتتحوّل المحبوبة عند الشّعراء المعاصرين إلى وطن، وتتداخل مشاعر الحب والفقد والأمل واليأس في نفوس الشّعراء الغزلين، وتشتدّ وطأة هذه المشاعر عند الشّاعر الضّرير، الذي يجد في الوطن حبّه المسلوب، وفي جماله سحر المحبوب، فتتوحد الصّورتان في مشهد واحد، وهذه الصّورة تتكرّر في شعر عبد الله البردوني، ومحبوبته صنعاء، التي تتقاطع مع شخصيات غزليّة، أغلبها من تاريخ اليمن "السّعيد" فهي بلقيس في سحرها وهيبتها، وحكمتها، ويتحوّل العاشق الولهان إلى مناضل

يقاتل من أجل حبّه، ويموت فداءً للمحبوب، فمحبوبته ملهمته التي تغذيه بالثّورة والأحلام، وإليها يهدي النّشيد:

في ضُلوعي إليكِ شوقٌ وقلبُ * شاعرٍ يعزفُ الصّبابـــــاتِ شَـدْوَا**
وبقلبي إليكِ شعرٌ سأرويـــ * ــهِ وشعرُ في خـــاطِري ليسَ يُروى**
آه يا قلبُ إنّها في صبوةِ الحُسـْ * ــنِ المَغنى وأنتَ أصبى وأغوى**
كُلّ شعرٍ غنّيتهُ فهو منها * وإليها والفنُّ يَحســـــــــوهُ صفْوا[16].**

وهب البردوني شعره لوطنه، ووسم ديوانه الأول باسم هذا الوطن الذي أطلق عليه " أرض بلقيس"، وأهدى له ألحان غزله الحزين، فلم تكن محبوبته الأولى سوى هذه الأرض، بالغة القدم والعراقة، أقدم من العرب أنفسهم، فهل كان غزل البردوني تقليديا تفرضه ضرورة الفنّ الخليليّ؟ وهل يشبه غزل المبصرين وحتّى العميان الغزلين؟ أم أنّه غزل يختصّ به البردوني وحده، يروي من خلاله معاناته، وتعاسته، ومآسيه؛ غزل بردوني يجمع بين وجدان رومانسي رقيق وعاطفة شعريّة قويّة، ونفس حرّة ثائرة. فما طبيعة الغزل في شعر اليمني الشّقي السّعيد؟

4. الغزل في شعر عبد الله البردوني: تتكرّر صور الغزل والحبّ في شعر البردوني، وينقاد الشّاعر الضّرير لعواطفه، ويجري وراء طيف المحبوبة، ثم يعود خائبا منكسرًا ومقهورًا، يرجع لوحدته ويستسلم لغربته العاطفيّة، وقد ظهر مضطربا، مرتابًا غير واثق من مشاعره، بل من مشاعر محبوبته، وهذا حال العميان الغزِلين، حين تستبد بهم الظنون، وتعصف بهم الشّكوك، وهي صورة تعيسة ومؤلمة لحب لا يكتمل، ولعاشق ظمآن لا يرتوي، فعلاقة البردوني بالمرأة قديمة ترجع إلى بداياته الشّعريّة: "**فقد بلغت ثماني وأربعين قصيدة، وغلب عليها الموضوعات الآتيّة: التغنّي بمحاسن المرأة والتواجد الحزين، والمناجاة الرّومانسيّة المتحدة مع الطبيعة والشّكوى من الوحدة، والوحشة والحرمان**

والفراق، ثم الفقدان والضّياع والتيه، اليأس من الحياة، والشّعور بالفراغ والابتعاد عن الحبيب واسترجاع الماضي، والبكاء على المحبوبة الغائبة والمناداة الصّادقة، وزيارة بيت الحبيبة المهجور.."[17].

لا تثبت علاقة الشّاعر بحبيبته على حال، ولا تستقر على صورة واحدة فهي دائمة التجدّد، تتلوّن بكلّ المشاعر، وتتسربل بالأحزان، فعلاقة الشّاعر بها قصيرة، ومصير الحب معروف منذ البدايّة، ونهايته محسومة، والحبّ عند البردوني هو الخلاص، ولكنّه لا يدوم، وكأنّ الشّاعر يضيق به، فيطرحه ويرميه، يختلق الأسباب الواهيّة للتخلّص منه، فيراه طغيانا واستعبادًا، يجب التحرّر منه، ومقاومته، فهو امتهان وسخريّة منه، ويغرق البردوني في تأنيب قلبه العاشق، الّذي يرميه في كلّ مرة إلى أمل مرجوّ، لا طائل منه، ولا منصف له:

فيكِ كلُّ الجَمالِ فيكِ التقى الحُسْـ ***ـنُ وفيكِ التقتْ جميعُ الحِسانْ
لم يهَبْ قَلبَهُ سواكِ ولـــــــــكنْ ** لم يذقْ منكِ غيْرَ طعمِ الهوان
فامنـحيهِ يـــا واحةَ الحُبّب ظلًّا ** وانفُضي حولَه ندى الأُقحـــوان
إنّه هائـــمٌ يعيشُ ويَشــقــى * بين جورِ الهـــوى وظلمِ الزّمــانْ[18]**

يعيش الشّاعر بين مظلمتين؛ مظلمة الحب وخيباته، ومظلمة الزّمان وسخريته من عاشق أعمى مهيض الجناح.

لا يستطيع القارئ للبردوني أحيانا تمييز ما هو وجدان الشّاعر وقصّة حبّ حقيقي منحه الشّاعر جوارحه، فنعم بلحظات وصال، ولذّة لقاء، وشقي بجفائه وهجر الحبيب، وبين غزل وطني سياسي، فالتمييز بين عشق المرأة، وعشق الوطن صعب، فالوطن عنده امرأة جميلة، متقلبة الأحوال مضطربة العواطف لا تفرّق بين صديق وعدو، وبين عاشق وطامع، وبين مخلص لحبّها ومستغل مخادع وكاذب.

5. السّخريّة في غزل البردوني: تتجاوز السّخريّة عند البردوني الحدود كلّها، فتعلق بالأغراض الشّعريّة، حتّى التي تتطلب الجدّ والحزم، فالشّاعر ساخر متهكم، ناقد ومتذمر، لا يكاد يسلم شيء من نقده المرح، وسخريته المرّة؛ فالمفارقات في حياته كبيرة، تدعو للعجب، وتستدعي الاستغراب: "**السّخريّة هي الحدود الأربعة لجغرافيّة شعر البردوني، فما وصف إلّا وسخر، وما تغزّل إلّا وسخر، وما هجا إلّا وسخر، وما مدح إلّا وسخر، إذن فالبردوني قهقهة عاليّة، وتفجّع مؤلم..**"[19]

تصاحب السّخريّة البردوني في جميع تفاصيل حياته الفنيّة والشّخصيّة، فقد كان حاضر النّكتة، ضاحكًا مضحكًا رغم ما يحيط به من مآسي، وما ينتابه من حزن وألم، وما يعترض دروبه من نكسات، وما يقابله من خيبات القلب وخسارات المشاعر، حينما يتحوّل العاشق الولهان إلى رجل مُضحك، يسخر من نفسه، ويهزأ من مشاعره، ويبالغ في جلد الذات، وتأنيب الضّمير، حتّى تكاد هذه الميزة تغلب على غزل البردّوني كلّه، فقد كان إخفاقه العاطفي كبيرًا يصعب احتماله وتجاوزه، وتمنّع المحبوبة واستحالة وصالها، يزيد من نزعة السّخريّة، فالحب عند الشّاعر يصبح جهدًا ضائعًا، وهدفًا بعيد التحقيق، فما الذي يمنع العاشق الضّرير من تحقيق منيّة نفسه؟ هو العقل الذي يطرد الأوهام، ويُجلي الحقائق، فأنّى للغرام أن يتمكن من كبرياء هذا العاشق؟ فيصرخ لستُ أهواك:

لستُ أهواكِ قدْ نحَرْتُ صبـــــــابا * تي كما ينحرُ القُنوطُ الرّجـــــاء**
ونسيْتُ اللّقا وعِفْتُ التّلاقـــــــــي*والتّصابي والحُسنِ والحسنـــــــاء**
فامضِ يا حبُّ قد رجعْتُ إلى العقـ * لِ المُصفَّى يُديرُني كيفَ يشـاء**[20]

يسخّر العاشق من حبّه الذي لم يكن سوى وهمًا، وضربا من الخيال، ويعود إلى رشده القديم، ليغرق في أحزانه من جديد، ويسلّم أمر الحبّ إلى المجهول

ويطرده من عالمه طردًا أبديّا ولكن هل يمكن لشاعر أن يحيا بدون حبّ؟ ويعيش بلا قلب؟ فقد قتل الحبّ وراح يبكيه، وتركه ثم راح يسأل عنه ماضيه:

يا حيرتي أين حبّي أين ماضيـــه * وأين صِبـــــــاه او تَصابيــه**

قتلْتُ حبّي ولكنّي قتلتُ بـــــــه * قلبي ومزّقتُ في صَدري أمانيــه**

وكيف أحيا بلا حبٍّ ولـــــي نفسٌ * في الصّدرِ أنشرُه وأطويـــــــه[21]**

6. صورة المرأة في غزل البردوني: لا تتخذ المرأة في غزل البردوني شكلًا واحدًا، ولا تثبت على صورة واحدة، فهي دائمة التحوّل، والتجديد، تتكيّف مع حالاته النّفسيّة، وتتغيّر بتغيّرها، تتلوّن بعواطفه، وتغرق في أحزانه، ولا تكاد تستقر على حال، فالشّاعر دائم الاضطراب والتحوّل، يضيق بالحبّ، ويملّ من محبوبته، ولا يخشى هجرها، بل ويسارع إلى إنهاء العلاقة بها، والاستسلام لأحزانه وماضيه الأليم، ورغم هذا الاضطراب تبرز المرأة في غزل الشّاعر جمالها الأنثوي الأخّاذ، وتظهر فتنتها، وتنفث سحرها، وتتجلّى في قمة الغوايّة تسلبه العقل والقلب، فيذعن لسلطانها، ويخضع لجبروتها ويشرب من كأس الصّبابة، حتّى الثّمالة، يترنّح من سكرة الحبّ يطلب المزيد قائلًا:

واحْتَسِي مِنْ كؤوسِ حبّي لُحونًا ** وارقُصِي رقصةَ الصّــبا والدَّلالِ

واسْكِريني يا هالَةَ الحُبِّ بالحُـــ ** بِّ وبالسّحْرِ مِنْ كؤوسِ الجمالِ

سكرةِ القلبِ بالهوى سكرةَ الأزْ ** هارِ بالعِطْرِ والنّــدى والظِّلالِ[22].

يرسم الشّاعر صورة الجمال الأنثوي في قصائد غزليّة كثيرة، ويمتزج هذا الجمال بالطبيعة، فتأخذ المحبوبة عطور الغاب، وندى الورد، ونور الفجر وإشراقة الصّباح، وطلعة البدر، وهدير البحر، وخرير السّواقي، تتوشح بألوان الحياة، تأخذ كلّ شكل، تعزف الأنغام والألحان العذبة الجميلة، تلبس الجمال مهيبة، وترفل ببريع الزّهور، تقترب من حبيب صديان، محروم من الوصال:

وأحسّها في كلِّ شيء صـــائتٍ * وأُحسُّها في كلِّ حيٍّ ..نامــي**
في رقّةِ الأزهارِ في هَمْسِ الشّذى* في تمتماتِ الجَدْولِ المترامي**
وتبرّجت لي كالطّفولةِ غضّـــــةً * كفمِ الصّباحِ المُترَفِ البَسّامِ**
وجميلةٍ فوقَ الجمَالِ وصفُـــها * وعَظيمَةٍ أسمى من الإعْظامِ[23]**

يواجه الشّاعر نفسه بالحقيقة، ويجاهر بها الجميع، ولم يعد يخفي لواعج الشّوق، وتباريح العشق والصّبابة، فقد تخلّص من الخوف، وانتصر على هواجسه وظنونه، فلم يعد يطيق الصّبر والانتظار، فليطلق صرخة الحبّ مدويّة، عاليّة، ويغرق الشّاعر وسامعه في لجج الغزل البردوني، ويستسلم السّامع إلى غوايّة الشّعر الغزلي وعذوبته، ليصحو على حقيقة لم يكن ليتوقعها فما المحبوبة سوى "بلقيس" أو لنقل "أرض بلقيس" صاحبة الديوان الشّعري الأوّل، فلم تكن هذه المعشوقة غيرها إنّها اليمن بلاد العاشق الضّرير، التي يعشقها على طريقته، ويحبّها على مذهبه:

وأُحبّها روحًا نقيًّا كالسّنى * وأُحبّـــها جسمًا من آثامِ**
وأُحبُّها نورًا وحيرةَ مُلحِدٍ * وأُحبّها صحْوًا وكأْسَ مُدامِ[24]**

لم تكن هذه المعشوقة سوى بلاده، التي يشترك في حبّها كلّ اليمنيين باختلاف مذاهبهم، وعقائدهم، من مؤمنين وملحدين، ولاهين ومتعففين، فالوطن يسع الجميع.

تتشابه قصص الغزل البردوني، وتنتهي نهايّة واحدة مؤلمة في الغالب محزنة، وتتداخل صورة المرأة مع صورة الوطن، فكثيرًا ما يتجلّى الوطن في صورة أنثويّة فاتنة، يصعب مقاومتها، ويتعذر على المعشوق صدّها والإعراض عنها، ولا يجني الشّاعر من حبّه ووفائه غير الخيبة والأحزان، فحبيبة قلبه غافلة ناكرة، لا فائدة ترجى من حبّها، ولا أمل فيها، فهي لا تأبه لعشّاقها، ولا تقدّر عواطفهم، ولا تنظر إليهم، ولا تكلّمهم أبدًا، لكنّهم أوفياء لها.

7. خلاصة ونتائج: الغزل فن المُبصرين الذين يمتعون ناظريهم بجمال المحبوب وجماله، ويفتتون بغوايّة هذا الجمال، ويتفننون في التعبير عن عواطفهم ولواعج شوقهم وصبابتهم، أمّا غزل العميان فهو غزل المحرومين المقطوعين عن هذا الجمال، المبعدين من دائرة الوصال والتحقيق، فقصص حبّهم في الغالب ناقصة، تلقي بأعباء القلب على طرف واحد، ويكون هذا الحب حزينًا مؤلما غارقا في العتمة والظلام واليأس.

لا يختلف غزل البردوني عن غزل العميان المكافيف، فالشّاعر عاشق عجول ملول، لا يريد الاستمرار في الحبّ، ويتعجّل نهايته، وهو لا يؤمن بهذا الحبّ ولا يصدّق عواطفه فيه، فالمحبوبة غادرة خائنة متخليّة، لا تبالي بعاشقها، ولا تحفل بمشاعره، فنزعة السّخريّة في غزل البردوني ظاهرة اختصّ بها، تعبّر عن توجسه من المحبوبة، وعجزه عن مجاراتها.

يعتبر غزل البردوني غزلا سياسيا أو "نسيبا" وطنيا، فما المحبوبة في شعره غير "بلقيس" الأنثى اليمنيّة التي ملكت قلوب عاشقيها، واستبدّت بمشاعرهم يصعب الوصول إليها، وتهون التضحيات من أجلها، فهناك تداخل موضوعاتي كبير في شعر البردوني الغزلي، بين ما هو وطني صِرف، وما هو ذاتي وشخصي خالصّ، وهو غزل حزين ومؤلم.

8- المراجع:

[1] –ابن قتيبة: الشّعر والشّعراء، تحقيق وشرح: محمد شاكر، دار المعارف، ج1، مصر (د ت) ص 75.

[2] –ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل للطباعة والنّش، ج1، ط5، بيروت 1981 ص 206.

[3] –ديوان أبي سويد الكاهلي؛ جمع وتحقيق: شاكر العاشور، دار الطباعة الحديثة، ط1 البصرة العراق 1972 ص 23.

[4] –شكري فيصل: تطور الغزل بين الجاهليّة والإسلام، مطبعة جامعة دمشق، ط1 دمشق سوريا 1959 ص 158.

*–هو من سعد بن ضبعة بن قيس وكان أعمى ويكنى بأبي بصير. وُسمي صِناجة العرب لأنّه أوّل من ذكر الصّنج في شعره فقال:

ومُستجيبٍ لصَوْتِ الصّنج تسْمعهُ إذا ترجَّعُ فيه القينةُ الفُضُلُ

شبّه العود بالصّنج. وسمعه كسرى ينشد فقال: من هذا؟ فقالوا: "أسروذ كويذ تازي" أي مغنّي العرب: ينظر الشّعر والشّعراء ج1 ص 257.)

[5] –الأصفهاني (أبو الفرج)؛ الأغاني ج6 ص 205.

[6] –عبد الله إبراهيم؛ عين الشّمس ثنائيّة الإبصار والعمى "من هوميروس إلى بورخيس" المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، ط1، لبنان 2018 ص61.

[7]–ديوان عنترة بن شدّاد العبسي، دار الآداب، ط4، بيروت، لبنان ص 63.

[8]–طه حسين؛ حديث الأربعاء، ج1، دار المعارف ط11، مصر (د.ت) ص 187.

[9]–الأعشى (ميمون بن قيس بن جندل)؛ الصّبح المنير في شعر أبي بصير، شرح: أبي العباس ثعلب، دار آذلف هلز هوسن، أبايّة، مصر 1927 ص 43.

[10]–ديوان الأعمى التطيلي؛ جمعه وحققه وشرحه: الدكتور محي الدين الديب، المؤسّسة الحديثة للكتاب، ط1، بيروت لبنان 2014 ص 22.

[11]–ابن كثير (الحافظ عماد الدّين)؛ البدايّة والنّهايّة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنّشر، ج13، ط1، مصر 1998ص 637.

[12]–طه حسين، مرجع سابق ص 308.

[13]–بشار بن برد؛ ديوان بشّار بن برد، جمع وتحقيق وشرح: الشّيخ الطاهر بن عاشور ط1، إصدارات وزارة الثّقافة الجزائريّة، الجزائر ص 43.

[14]–المصدر نفسه ص 190.

[15]–ابن قيس الرّقيات؛ ديوان ابن قيس الرّقيات، تحقيق: د/ إبراهيم عبد الرّحمن محمد الشّركة المصريّة العالميّة للنشر، ط1، مصر 1996ص 120

[16]–عبد الله البردوني؛ الأعمال الشّعريّة المجلد الأول، الهيئة العامة للكتاب، ط1 صنعاء، الجمهوريّة اليمنيّة 2002 127.

[17]–شوقي بغدادي؛ الشّاعر الكفيف والمرأة (الشّاعر عبد الله البردوني أنموذجا)، مجلة الكويت عدد 227، الكويت 2002 ص47.

[18]–البردوني؛ المصدر نفسه ص 70.

[19]–وليد مشوح؛ السّخريّة في شعر البردوني، مجلة الكويت، العدد 227، وزارة الإعلام الكويتيّة، الكويت 2002 ص 166.

[20]–المصدر نفسه ص146.

[21]–المصدر نفسه ص 167.

[22]–المصدر نفسه ص 187.

[23]–المصدر نفسه ص 293. 294.

[24]–المصدر نفسه ص294.